حفائر الجامعة المصرية فى المعادى

بعض نتائج الحفر فى المواسم الخمسة الأولى

١٩٣٠ - ١٩٣٥

للأستاذ

مصطفى عامر

حفاير الجامعة المصرية في المعادى

بعض نتائج الحفر فى المواسم الخمسة الأولى

١٩٣٠ – ١٩٣٥

للأستاذ

مصطفى عامر

حفاير الجامعة المصرية فى المعادى

بعض نتائج الحفر فى المواسم الخمسة الأولى (١٩٣٠ — ١٩٣٥)

للأستاذ مصطفى عامر

مرّ الإنسان منذ أن ظهر لأول مرة فى مصر، إلى أن بزغت شمس التاريخ بقيام الأسرة الأولى فى عدّة أدوار، كل منها يعتبر مرحلة من مراحل تقدّمه فى سلم الحضارة، وبدون معرفة تلك الأدوار لايمكن أن نفهم كيف نشأت تلك الحضارة وكيف نمت وتطوّرت .

وقد أصبح من الصعب على الباحث فى أصل الحضارات التاريخية أن يتجاهل ماحدث من تطوّر فى الفترة الطويلة التى سبقت التاريخ، والتى كافح الإنسان فى خلالها كفاحا مستمرا، حتى أمكنه أن ينتقل من الحالة البدائية التى وجد فيها إلى الحالة المتحضرة التى نعرفها . ومن الأمور المعترف بها أن كل دراسة جغرافية لاقليم من الأقاليم لاتكون دراسة كاملة إذا هى أهملت الماضى التاريخى، وفى اعتقادنا أنها تبقى أيضا ناقصة إذا هى أغفلت الماضى فى أدواره الأولى التى سبقت بدء التاريخ.

ومن هنا كان اهتمام الجغرافيين فى السنوات الأخيرة بدراسة عصر ما قبل التاريخ، وعلى الخصوص لأن تلك الدراسة بعد أن كانت محصورة فى ميدانها الاركيولوجى الضيق، أخذت تهدم بالتدريج ما بينها و بين العلوم المختلفة التى تتصل بها فى أكثر من ناحية، من حواجز وحدود . ولما كان المهم فى دراسة ما قبل التاريخ فى إقليم معين، تتبع التاريخ البشرى منذ ظهور الإنسان فيه لأول مرّة، وتعرف الظروف المناخية والنباتية التى عاش فيها فى الأدوار المتتابعة، وربط كل ذلك بما حدث من تطوّر فزيوغرافى فى الاقليم، كانت ضرورة التعاون بين العلوم الجغرافية والجيولوجية والاركيولوجية فى تلك الدراسة من الأمور الواضحة .

كل هـذا يجعل دراسة ماقبل التاريخ تختلف تماما ، فى أساليبها وفى وسائلها ، عن دراسة الآثار التاريخية ، فهى تعتمد فى استخلاص النتائج على الدرس المقارن ، وعلى ربط الحقائق الطبيعيـة بالحقائق البشرية ، على حين تعتمد الثانية على الكتابة والنقوش المدونة .

وينتهى عصر ما قبـل التاريخ فى مصر حيث يبـدأ التـاريخ وذلك حوالى سنة ٣٢٠٠ ق.م . وأما بدؤه ، فمن الصعب تحديده بتاريخ مضبوط ، وانما يكفى أن نقول أنه يرجع الى أوائل العصر الجيولوجى الرابع ، وهو العصر الذى اتفق على أن الإنسان ظهر فيـه لأوّل مرّة . ومن الاركيولوجيين من يفرض لذلك تاريخا يرجع إلى سـنة ١٠٠,٠٠٠ ق . م . وذلك لكى يقـرب إلى ذهن الرجل العادى نوع التاريخ الذى يجول بخاطره .

وقد كان الإنسان فى خلال القسم الأكبر من ذلك العصر يعيش على الفطرة ، فيصيد الحيوان والسمك ، ويقتات بما يجمعه من ثمار ، ويستخدم الآلات الحجرية فى شئونه المختلفة . ويعرف هذا الإنسان بإنسان العصر الحجرى القديم ، وقد سكن الكثير من جهات الصحراء حيث لا ماء ولا عشب فى الوقت الحـالى ، كما سكن منخفضات الواحات وعلى جانبى وادى النيـل . ونحن وإن كنا لم نعـثر للآن على هياكله العظمية ، إلا أن الآلات الحجرية الكثيرة التى تركها وراءه ، قـد دلت على وجوده ، وعلى أنه قـد مرّ فى خلال تلك الآلاف من السـنوات فى عدّة أدوار ثقافيـة ، يتميز بعضها عن بعض من الناحيـة الفنية بطريقة صنع الآلات الحجرية ، وهى أدوار بينها وبين الأدوار التى مرّ فيها انسان العصر الحجرى القديم فى أوربا ، وجوه شبه كثيرة .

ويسـتدل من دراسـة أنواع التكاوين وأشكالها ، ومن فحص بقايا النبات والحيوان ، وهى التى وجدت معها آثار ذلك الإنسان على أنه قد عاش فى خلال تلك

الأدوار تحت مؤثرات جغرافيـة مختلفـة . ففى أوائل ذلك العصر ، كانت درجة الحرارة تميـل إلى البرودة ، وكانت الأمطار غزيرة ، فساعدت على حفر الوديان وتكوين المصاطب والدالات الصـحراوية . وتلى ذلك الدور المطير ، فترة غير مطيرة ، تمتاز بتكوين الكثبان الرمليـة بفعل التعرية الهوائية ، و باضطراب بسيط فى القشرة الأرضية ، أوجد الفوالق المعروفة فى الواحات الخارجة . ثم أتى بعد ذلك دور مطير ثانٍ ، هو أقصر من الدور الأوّل ، كوّن فيـه نهر النيـل بعض مصاطبه ، واتصل لمدّة ما بمنخفض الفيوم فتكوّنت فيـه بحيرة عظيمة ، وصل ارتفاع سطح المـاء فيها إلى ما يقرب من ٣٥ مترا[١] فوق مستوى سطح البحر ، ولكنها لم تلبث أن انكمشت وانخفض مستوى المـاء فيها ، وذلك بعد أن عمّق النيل مجراه وانفصـل خلال فـترة من الزمن عن المنخفض المذكور و بعـد أن حل دور جفاف تدريجى قرب نهـاية العصر الحجرى القـديم[٢] ، أخذت تسود فيـه الأحوال الصحراوية ، وتتركز الحياة البشرية والحيوانية قرب موارد المـاء التى لم ينضب معينها . وفى نفس ذلك الوقت أخذ نظام صرف المـاء فى وادى النيل يقرب من الاستقرار ، وبدأ يرسب النهر فى مصر الوسطى والسفلى الغرين الذى أتى به من الحبشة ، وقد ساعد على ذلك دون شك ارتفاع ظاهر فى سطح البحر ، مما قلل من فعل النحت النهرى وزاد من شأن فعل الارساب .

هذا جانب من القصة الجغرافية الطويلة لعصر ما قبل التـاريخ فى مصر ، وأما الجانب الآخر من تلك القصة ، فيبدأ حول سنة ٦٠٠٠ أو ٥٥٠٠ قبل الميلاد وذلك بمظاهر ثقافية جديدة ، وفى ظروف طبيعية جديدة . إذ يتفق ظهور حضارة العصر الحجرى الحديث مع زيادة فى مقدار ماينزل من المطر ، وهى زيادة و إن كانت

(١) يبلغ سطح بحيرة قارون فى الوقت الحالى حول ٤٥ مترا تحت مستوى سطح البحر .

(٢) فى ذلك الوقت بدأت تجف كذلك الينابيع القديمة (Fossil springs) فى الواحات الخارجة وتكوّن الكثبان الرملية .

ضئيلة فى الواقع ، إلا أنها كانت عظيمة الأثر فى حياة الإنسان . وقد استمر هـذا الدور الممطر فى العصر التاريخى نفسه حتى أيام الدولة القـديمة ، ولكنه لم يلبث أن اختفى (حوالى سـنة ٢٥٠٠ ق ٠ م) وعاد الجفاف مرة أخرى ، وما زال مستمرا حتى اليوم .

والظاهر أن تلك الظروف الجـديدة هى التى دفعت انسان العصر الحجـرى الحديث إلى النهوض والتقدّم السريع ، فقـد استطاع بسرعة مدهشة أن يستأنس الحيوان و يعيش على الرعى ، وأن يكتشف سر الزراعة ، و يشيد المسكن ، وينظم الجماعة على أساس المصلحة المشتركة . وقد تمكن كذلك من صنع الآنية الفخارية ، ومن عمل آلات صوّانية متنوّعة الأشكال تلائم أغراضه الجديدة .

وقرب نهاية العصر الحجرى الحديث دخل هـذا الانسان فى آخر دور من أدوار تطوّره الثقافى (وهو دور عصر ماقبـل الأسرات) فاستطاع أن يستخدم النحاس فى صناعة بعض الآلات ، وذلك على الرغم من أن استعمال الآلات الصوّانية بقى شائعا ، كما استطاع أن يخطو ، فى كل ناحية من نواحى الحياة ، خطوات سريعة ، نراها ممثلة أتم تمثيل فى حضارات ذلك العصر ، بما فيها حضارة المعادى التى كشفت عنها الجامعة المصرية فى السنوات الأخيرة .

ولقد كانت كل معلوماتنا عن ذلك العصر تأتى من الصعيد ، وكان المعتقد إذن أن الحضارات المصرية الأولى انما نشأت فى ذلك الاقليم ، ثم انتشرت منه إلى الدلتا شمـالا . وقد عضّد هذا الرأى ما كان يعرف عن نجاح غزو الجنو بيين للشماليين ، وقيام الأسرة الأولى من بين الأمراء الفاتحين .

غير أن خلو الدلتا من بقايا الإنسان الأوّل ، وعلى الخصوص فى مراحل تقدّمه الأخيرة ، إنما يرجع إلى كثرة ما أرسبه النيل من الغرين ، الذى أخفى فى باطنه كل ما تركه ذلك الإنسان مـن أثر . وما عثر عليه الباحثون من أدلة فى العهـد الأخير

إنما يأتى جميعها من الصحراء عند حافة المنطقة التى يكسوها الطمى، كما هى الحال فى الفيوم، وفى مرمدة بنى سلامة فى غرب الدلتا، وفى المعادى فى شرقها .

والواقع أن الدلتا كانت فى عصر ماقبل التاريخ أكثر تقدما من الصعيد . فأراضيها الزراعية ومراعيها أكثر اتساعا من أراضى الوادى الضيق فى الجنوب، هذا إلى جانب اعتدال مناخها، واتصالها بالبحر وما يأتى عن طريقه من مؤثرات مختلفة، واتصالها بجيرانها اللوبيين من ناحية، والأسيويين من ناحية أخرى. وتحدثنا بعض النصوص التاريخية عما كان لهليوبوليس من مركز ممتاز قبل قيام الأسرات مباشرة، وعن مدى ماوصلت إليه الدلتا من تقدم فى مختلف العلوم والفنون، وعن اكتشاف أهلها للسنة المكونة من ثلثمائة وخمس وستين يوما[1]. والأدلة لدينا كثيرة على أن إحدى حضارات الصعيد فى عصر ما قبل الأسرات[2]، هى من أصل شمالى، وأن اتحاد الوجهين البحرى والقبلى، تم لأول مرة، قبل بدء التاريخ، تحت زعامة الشماليين . وليس من شك فى أن الدلتا كانت فى ذلك العصر أكثر ازدحاما بالسكان، وكانت قراها ومدنها أعظم اتساعا وأفضل نظاما من قرى الصعيد ومدنه .

كل هذا يجعل لدراسة كل مايكشف عنه البحث من آثار عصر ما قبل التاريخ فى الدلتا أهمية خاصة . أما حضارة مرمدة بنى سلامه فترجع كما يتضح من الجدول الآتى إلى بدء العصر الحجرى الحديث، وربما كانت أقدم من أقدم الحضارات المعروفة فى الصعيد، ومن المحتمل أن تكون قد سبقتها أدوار أخرى أقدم منها، وذلك استنادا الى ما قد وصلت اليه من تقدم ورقى . وحضارة الفيوم كثيرة الشبه بحضارة مرمدة، وقد كانت معاصرة لها فى الأدوار الأولى من حياتها، وأما الأدوار الأخيرة فهى أحدث من ذلك، كما يتضح من درس آثارها. وترجع حضارة المعادى

(١) فى سنة ٤٢٤١ ق . م . وهو أول تاريخ محدود فى العالم .

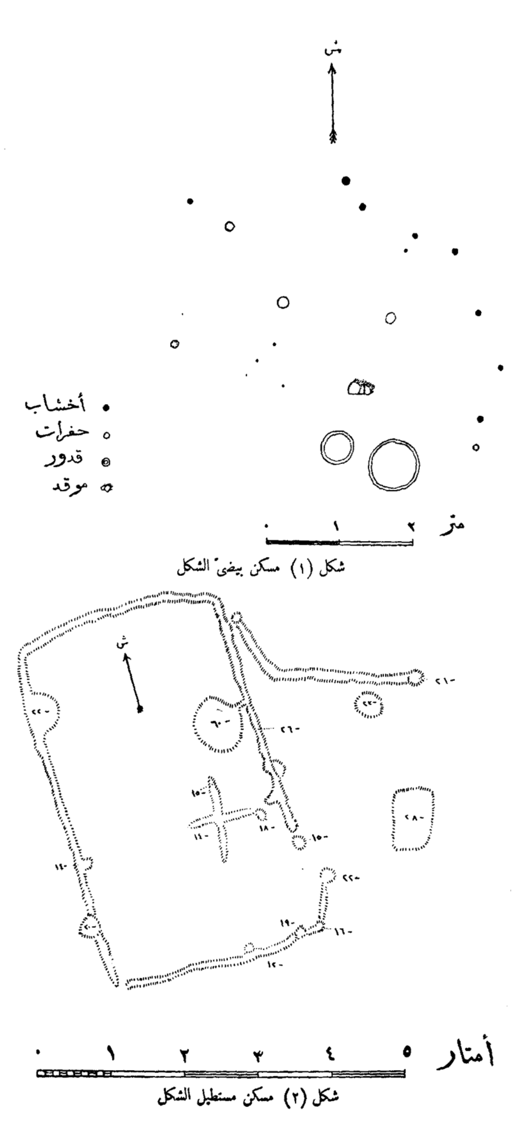
(٢) حضارة جرزة .

إلى أواخر عصر ما قبل الأسرات ، وإلى الفترة التى سبقت قيام الأسرة الأولى بزمن غير طويل . والأدلة على ذلك ظاهرة من دراسة صناعة الآنية الفخارية والحجرية والأسلحة الصوانية، ومن استخدام النحاس . على أن بعض الحلقات فى سلسلة الحضارات الشمالية لايزال ناقصا، ولعل الأبحاث المستقبلة كفيلة بسدّ هذا الفراغ، لكى تصبح الصورة النهائية عنها كاملة غير منقوصة .

التاريخ بالتقريب	الدلتـــا	الصـــعيد
± ٣٢٠٠ ق . م	الأسرة الأولى	الأسرة الأولى
	المعـادى	سماينـــة جـــرزة
	الفيوم (ب)	العمـــرة
± ٥٠٠٠ ق . م	مرمدة بنى سلامة ... ... الفيوم (أ)	البـــدارى دير تاسا

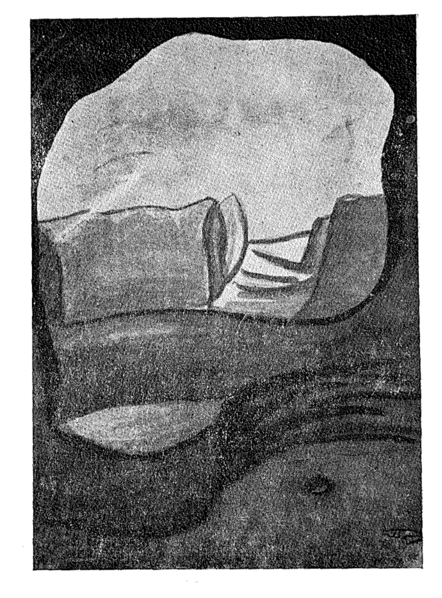
وقد بدأت كلية الآداب أعمال الحفر فى المعادى فى شتاء سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ ؛ وأتمت فى العام الماضى (سنة ١٩٣٥) خمسة مواسم ، وهى الآن تعمل فى الموسم السادس. والمنطقة التى تقوم بالحفر فيها تقع فى الأرض الصحراوية المرتفعة فى شرق المعادى ، وقد أقيمت على القسم الغربى الأقصى منها محطة ماركونى اللاسلكية . ولقد تراكمت بقايا المساكن القديمة على شكل طبقات يعلو بعضها البعض الآخر، وهى أكثر عمقا فى وسط المنطقة حيث تبلغ مترا ونصف متر[1]، منها فى أطرافها الشمالية والجنوبية حيث لا تزيد على بضعة سنتيمترات .

(١) وقد وصل العمق الى مترين فى جهة منعزلة جنوبى المنطقة الرئيسية ، وهى ملك لشركة أراضي الدلتا بالمعادي .

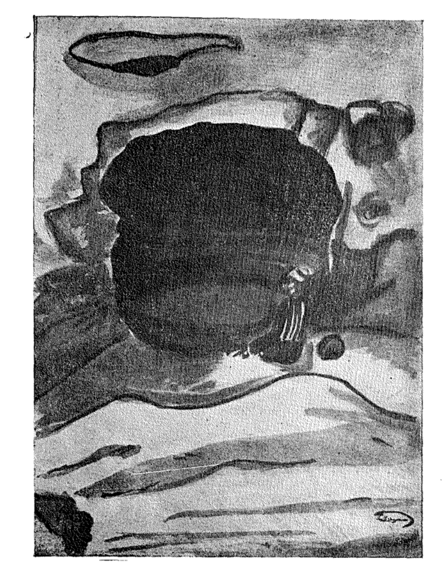


شكل (١) مسكن بيضىّ الشكل

شكل (٢) مسكن مستطيل الشكل



منظر لمدخل الكهف السابق كما يرى من الداخل



منظر للجزء الداخلى من أحد الكهوف

وقد اتبع فى الحفر طريقـة تقسيم الأرض الى مربعات كل منهـا عشرة أمتار مربعة، وأزيلت المواد المتراكمة فى كل مربع طبقة بعد طبقة، حتى يصل الانسان الى التربة الرملية الأصلية التى شيد القوم عليها مساكنهم عنـد استيطانهم لها لأول مرة . ولتلك الطريقة مزاياها الخاصة ، إذ هى تعيّن موضع كل قطعة من القطع الأثرية التى يعثر عليها الباحث أثناء الحفر ، وتساعد على دراسة الآثار المختلفة، كل نوع على حدة، وذلك من حيث توزيعها ودرجة انتشارها فى كل ناحية من نواحى المنطقـــة .

" والاثار الثابتة " وهى التى لا بد من دراستها فى أماكنها لعدم إمكان نقلها، تشمل مساكن القوم ومواقدهم والمخـازن التى يدخرون فيهـا مأكلهم ومشربهم والأماكن التى يدفنون فيها موتاهم . أما المساكن فقد بنى غالبها من أغصان الأشجار وطلى سطحها من الخارج بكساء من طين، وهى غاية فى البساطة، وربمـا كانت لا تختلف كثيرا عن مساكن البـدو وفقراء الريف فى الوقت الحالى . وقد وجد فى الكثير منهـا بعض الأدوات المنزلية من آلات صوّانية وآنية فخارية وحجرية ، وبها مخازن خاصة بهـا، ولكل منها موقد أقيم عنـد مدخلها . ويتجه هذا المدخل فى العادة صوب الجنوب وذلك لوقاية القوم من ريح الشمال، وبخاصــة فى فصل الشتاء البارد . ومعظم تلك المساكن ذو شكل بيضى (شكل ١)، وبعضها مستطيل الشكل (شكل ٢) يماثل فى رسمه رسم أحد الحروف الهيروغليفية التى عرفت فى العصر التاريخى والتى قصد الفراعنة أن يعبروا بها عن فناء المنزل. ويغلب على الظن أن رسم هذا الحرف انمـا يرجع فى أصله الى شكل بعض مساكن عصر ما قبـل التاريخ . ثم هناك نوع آخر من المساكن لا نعرف له مثيلا فى كل آثار ذلك العصر فى مصر، فقـد عثرنا فى الموسم الخامس على كهفين متجاورين حفرهما القـوم حفرا عميقا فى التربة الرمليــة المتماسكة الذرات (شكل ٣)، وقطعوا لها درجات تؤدى الى كل منهما وكسوا جوانبها بكتل من الصخور (شكل ٤) . وقد بلغ عمق أحدهما مترين

ونصف متر تقريبا ، وتكفى مساحتـه إيواء عائلة مكوّنة من سـتة أشخاص على الأقل ، وكان بين ما احتواه كل منهما عدد كبير من الأدوات المنزلية ومقدار غير قليل من عظام الحيوان .

وعلاوة على المواقـد الصغيرة الملحقة بالمساكن، توجد مواقـد كبيرة معظمها فى القسم الشمالى من المدينة، وقد وضعت الحجارة حول رمادها الكثيف على شكل نصف دائرة (شكل ٥)،ويظهر من شكلها وتوزيعها أنهـا كانت مواقد عامة يستخدمها جميع الأهالى على السواء . وقد كانوا يخزنون قوتهم من لحوم وحبوب، ويخفون متاعهم من آنية وآلات مختلفة فى قدور كبيرة الحجم (شكل ٦) أو فى حفرات عميقة (شكل ٧) تغطّيها فى بعض الأحيان غطاءات من قش مصنوعة كالسلال . وقد لوحظ من توزيع أنواع المخازن أنه بينما تكثر القدور الكبيرة فى شمال المدينة، فان الحفرات العميقة تزدحم فى جنوبها .

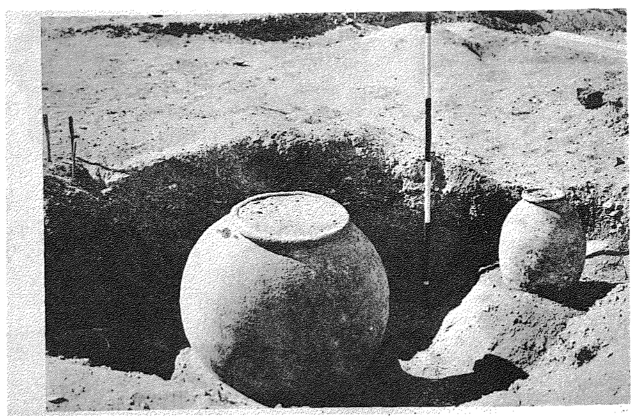
ولسنا نعلم تماما أين كان سكان المعادى الأقدمون يدفنون موتاهم ، إذ لم يؤد بنا البحث للآن الى العثور على المدافن، ومن المحتمل أن تكون قد جرفتها السيول فى العصور الغابرة دون أن تترك لهـا أثرا . على أن ذلك لا يقلل من الأهمية العلمية للحفاير؛ فالبحث عن القرى والمدن القديمة والتنقيب فيها هو فى حدّ ذاته درس قيّم لحياة السكان الأول، والمعلومات التى يمكن الحصول عليها من مثل تلك الدراسة هى دون شـك أعظم فائدة وأقرب الى الحقيقة من كل ما نستخلصه من دراسـة المقابر وما تحويه فى العـادة من أدوات مختارة تدفن مع الموتى . على أن الحظ قد وفّقنا فى الموسم الرابع الى العثور على قبر فريد (شكل ٨) وجدناه بين المساكن، ذلك على الرغم من أن دفن الموتى كان من المؤكد فى خارج حدود المنطقة المخصصة للسكنى. وهذا القبر هو حفرة تقرب من الاستدارة، وقد وضعت فيها الجثة على جانبها الأيسر، واتجه الرأس صوب الجنوب والوجه صوب الغرب، واقتربت الركبتان من الصدر، ووضـع بجانبها بعض الآنيـة الفخارية التى تحوى المـاء والطعام وهى عادة بقيت



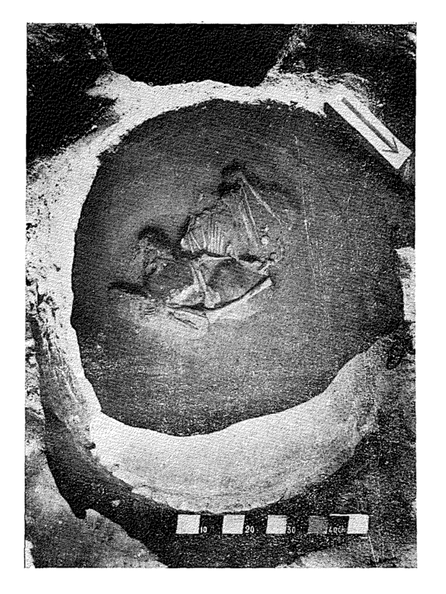
طريقة من طرق دفن الموتى فى المعادى



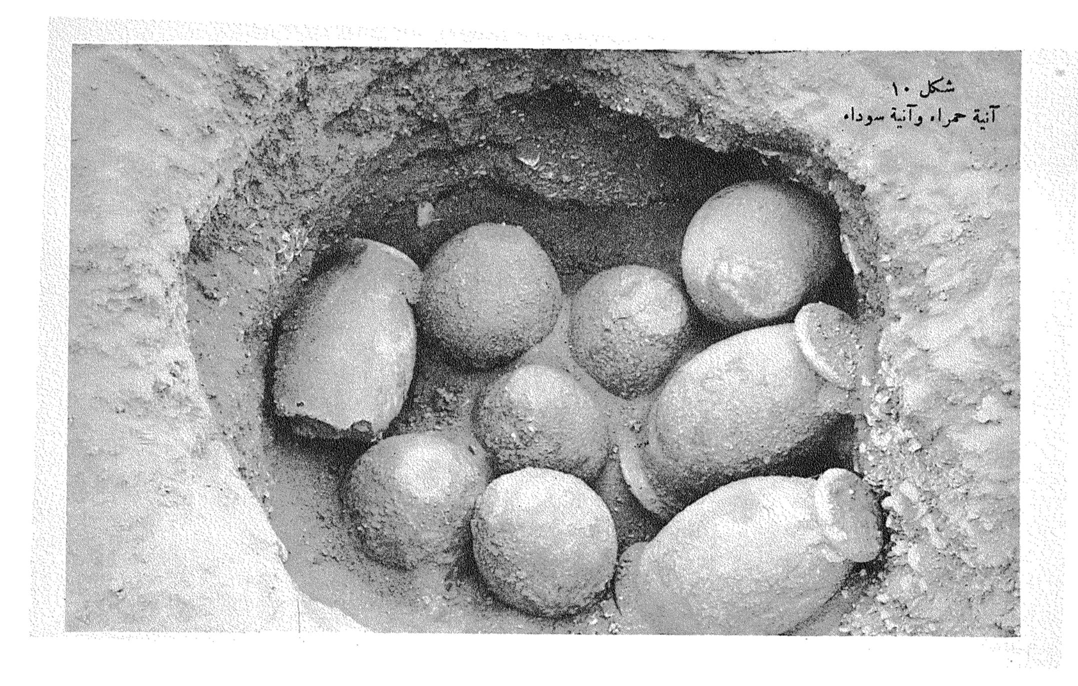
شكل ٥
موقد كبير ذو شكل نصف دائري



شكل ٦
قدور كبيرة للخزن



وعاء من الفخار فى داخله هيكل عظمى لشخص حديث السنّ



شكل ١٠
آنية حمراء وآنية سوداء

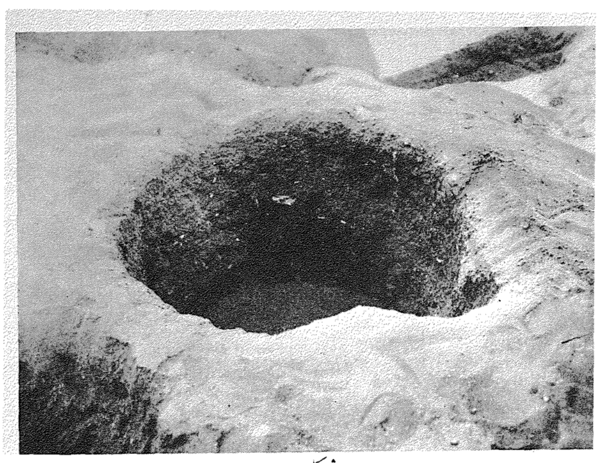
شائعة لمدّة طويلة فى العصر الفرعونى . وقد وجد هيكل عظمى آخر لشخص صغير السنّ دفن فى قدر كبير (شكل ٩)، كما وجدت بقايا كثير من الأطفال معظمهم لم يتم شهور الحمل، وقد دفن بعضها فى قدور صغيرة والبعض الآخر فى حفرات بسيطة فى أرض المسكن . وعادة دفن الأطفال فى مثل تلك الظروف هى من العادات المعروفة فى بعض جهات الريف فى مصر فى وقتنا هذا .

ولنصف الآن أهم " الآثار المنقولة " وهى التى تجعل لحضارة المعادى مظهرا خاصا يميزها عن سائر الحضارات المصرية فى عصر ما قبل التاريخ . ومعظم تلك الآثار صغير الحجم، وهى تشمل فى مجموعها أنواع الآنية الفخارية والحجرية، والآلات الصوّانية والنحاسية ، ومختلف الأدوات المنزلية سواء كانت مصنوعة من الصخر أو من الخشب وعظام الحيوان أو من الأصداف والقواقع المختلفة . أما الآنية الفخارية فهى كثيرة ومتنوعة، وقد جمع منها فى المواسم السابقة بضع مئات من القطع الكاملة التى قد حافظت على سلامتها على الرغم من آلاف السنوات التى مرت عليها . وهى مختلفة الأشكال والأحجام ؛ متعدّدة الألوان ، غير أن معظمها ينتمى الى أحد نوعين، نوع أسود ذى سطح مصقول وشكل كروىّ، ونوع أحمر يميل الى الاستطالة وله قاعدة كأسية (شكل ١٠) . والنوع الأخير على الخصوص يعطى صناعة الفخار فى المعادى طابعا خاصا يميزها عن غيرها من الصناعات فى جهات مصر فى تلك العصور . و بعض الأنواع الأخرى مهمة كذلك على الرغم من قلة عددها ، فقد ساعدت على استنتاج ما كان هناك من اتصال بين المعادى والبلاد المجاورة . ولقد أظهرت الدراسة فعلاً أن سكان المعادى كانوا على اتصال بالصعيد من ناحية، وبجهات لوبية فى غرب الدلتا من ناحية أخرى، كما كانوا يتبادلون بعض التجارة مع فلسطين . ولا شك أن موقع المعادى قرب رأس الدلتا وعند نهاية الطريق الصحراوى الممتد شرقا الى شبه جزيرة سيناء كان له أكبر الأثر فى إنشاء تلك الروابط

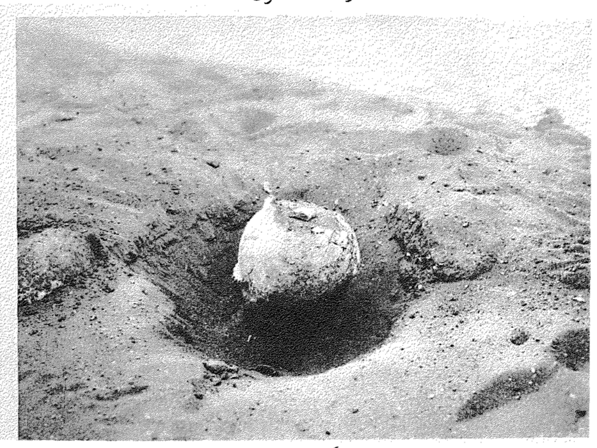
القديمة . ولنذكر هنا على سبيل التمثيل أهم تلك الأنواع النادرة دون بحث المسائل المعقدة المرتبطة بها .

فهناك الآنية المشهورة بمقابضها (شكل ١١)، وعلى الخصوص المقابض المموجة [Wavy-handles] (شكل ١٢)، والتى يعتقد بعض الباحثين أنها من أصل غير مصرى وأنها فى الغالب وصلت مصر من سورية، وهناك الأنواع الحمراء ذوات الحافة العليا السوداء وهى منتشرة كل الانتشار فى الجنوب والمعروف أنها من أصل صعيدى، ثم هناك أيضا آنية يزدان سطحها بألوان تمثل أشكالا مختلفة (شكل ١٣) ، وهى أنواع لم تكن معروفة فى مصر من قبل إلا فى الوجه القبلى حتى أظهرت حفاير المعادى أنها توجد كذلك فى الدلتا ، ولربما كانت نشأتها الأولى فى ذلك الإقليم كما تدل على ذلك دلائل كثيرة . والأمثلة التى لدينا من تلك الأنواع النادرة ، وإن كانت لا تزال محدودة العدد، إلا أنها فى زيادة مستمرة من موسم إلى آخر .

ولا تقل الآنية الحجرية عن الآنية الفخارية شأنا فى الدراسة الاركيولوچية البحتة لحضارة المعادى . وهى مثلها متعدّدة الأشكال، وتختلف ألوانها تبعا لأنواع الصخور المستخدمة فى صنعها . ومن الآنيـة الكثيرة التى لدينا عدد غير قليـل يبين مدى ما وصلت إليه تلك الصناعة من دقة فى ذلك العصر، وما كان لدى القدماء من مهارة عجيبة فى قطع الصخور الصلبة وتشكيلها وصقل سطحها . فهم إن كانوا قد استخدموا الأحجار الجيرية بكثرة لوجودها فى التلال القريبة، وصنعوا منها المصابيح والأقداح (شكل ١٤) والكؤوس والمهاريس والهواوين، فقد كانت لديهم كذلك آنية جميلة الشكل متقنة الصنع من أحجار البازلت (شكل ١٤ وشكل ١٥) والمرمر والنِّسّ و بعض أنواع أخرى من الصخور النارية التى لا يسهل نحتهـا . و يمتاز بعض تلك الآنيـة بمقابض صغيرة تعلّق منها ، و يمتاز البعض الآخر بتقليده للآنية المعروفة فى جهات لوبيـة . أما أقرب الأماكن التى يمكن قطع حجر البازلت الأسود منها فهى جهـة أبى زعبل فى شمال القاهرة، والمنطقة الواقعة شمال الفيوم فى غرب وادي النيل .



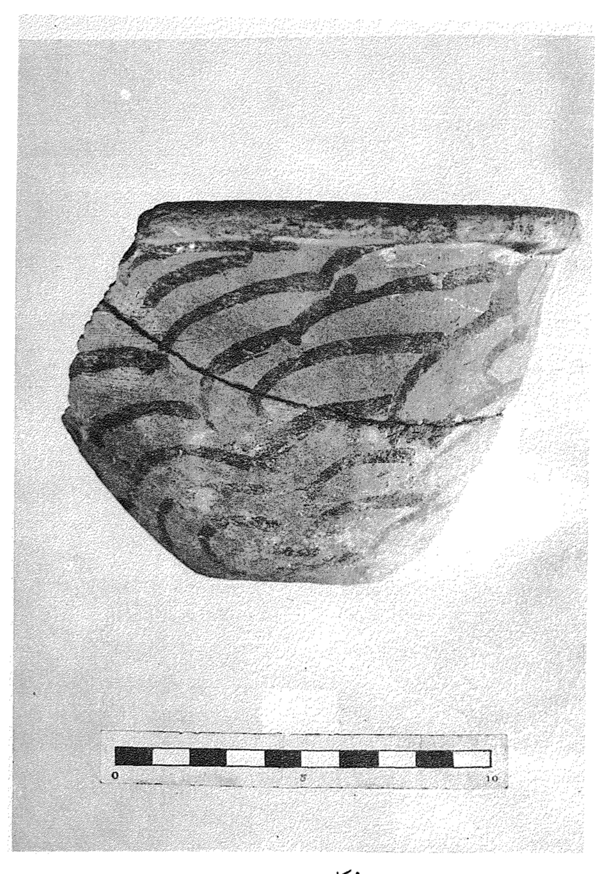
شكل ٧
حفر معدة للخزن



شكل ١٢
اناء من الفخار له مقبض مموج

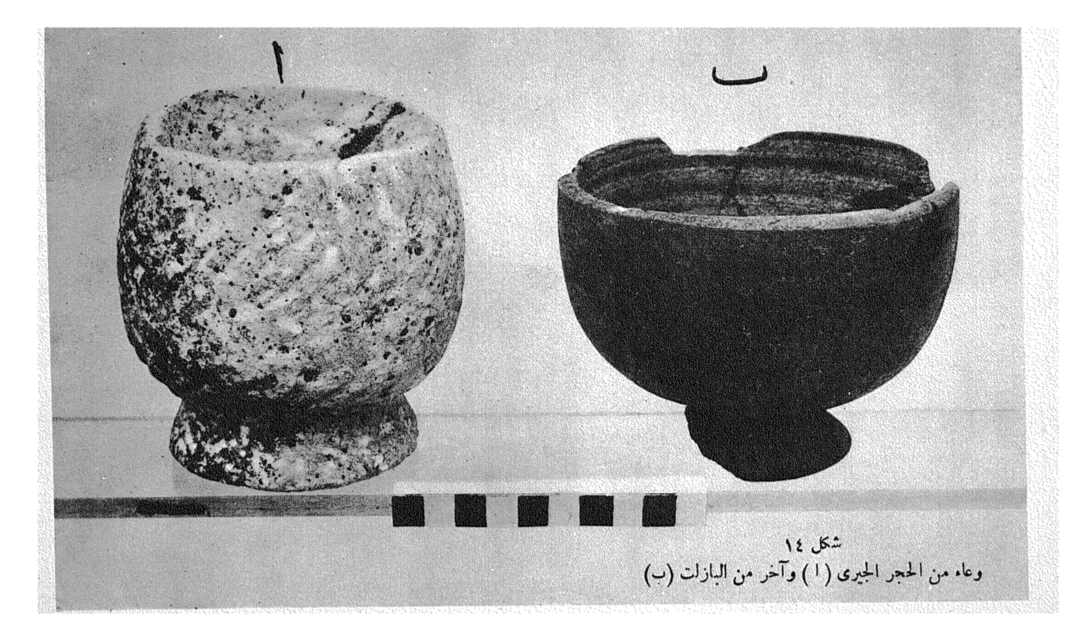


شكل ١١
آنية فخارية غريبة الشكل
والصنع ولبعضها مقابض



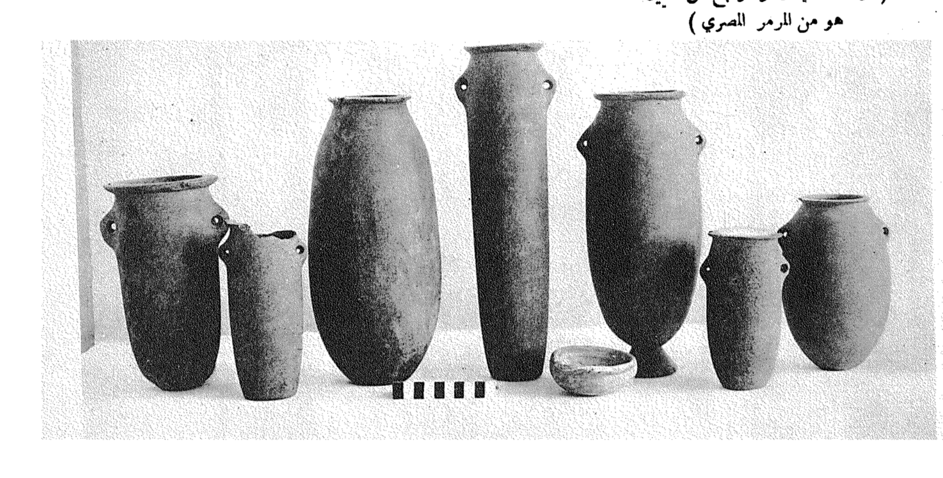
شكل ١٣

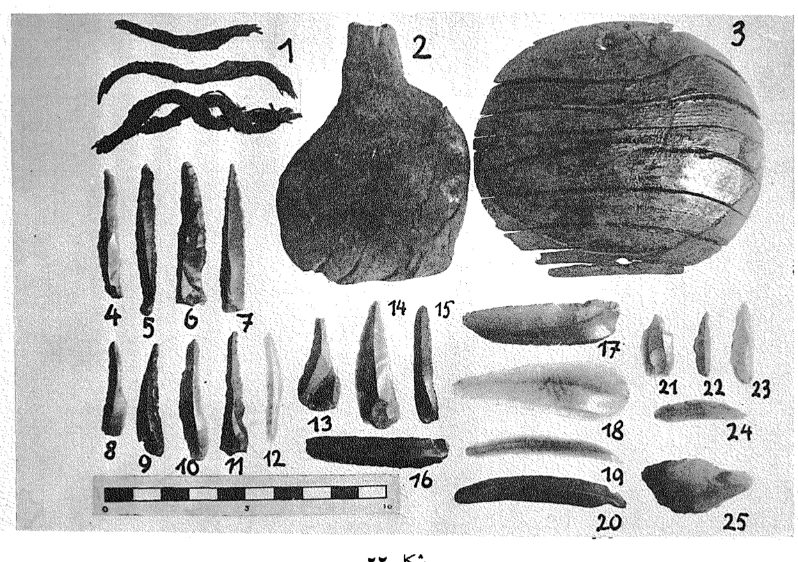
جزء من قصعة يزدان سطحها بالألوان من الداخل ومن الخارج



شكل ١٤
وعاء من الحجر الجيرى (ا) وآخر من البازلت (ب)

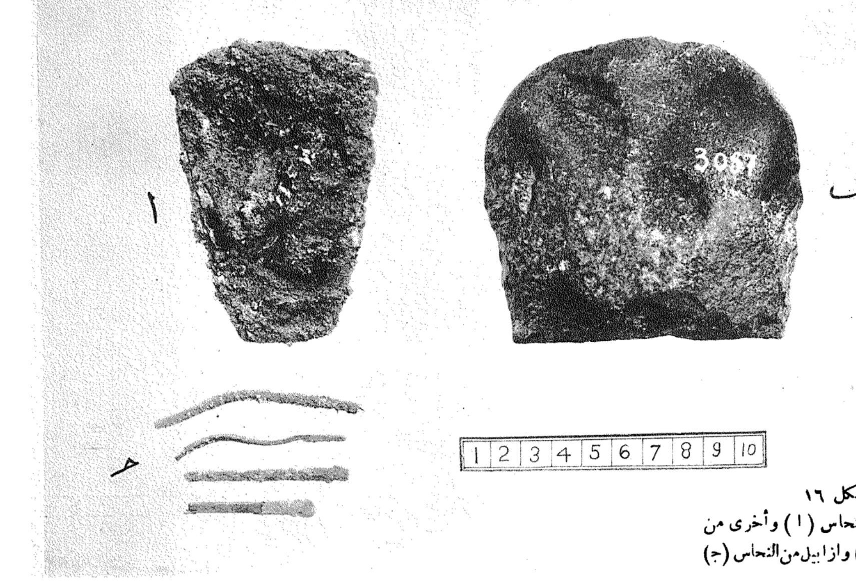
شكل ١٥
آنية جميلة من صخر البازلت الاسود
(الوعاء الصغير وهو الرابع من اليمين
هو من المرمر المصري)



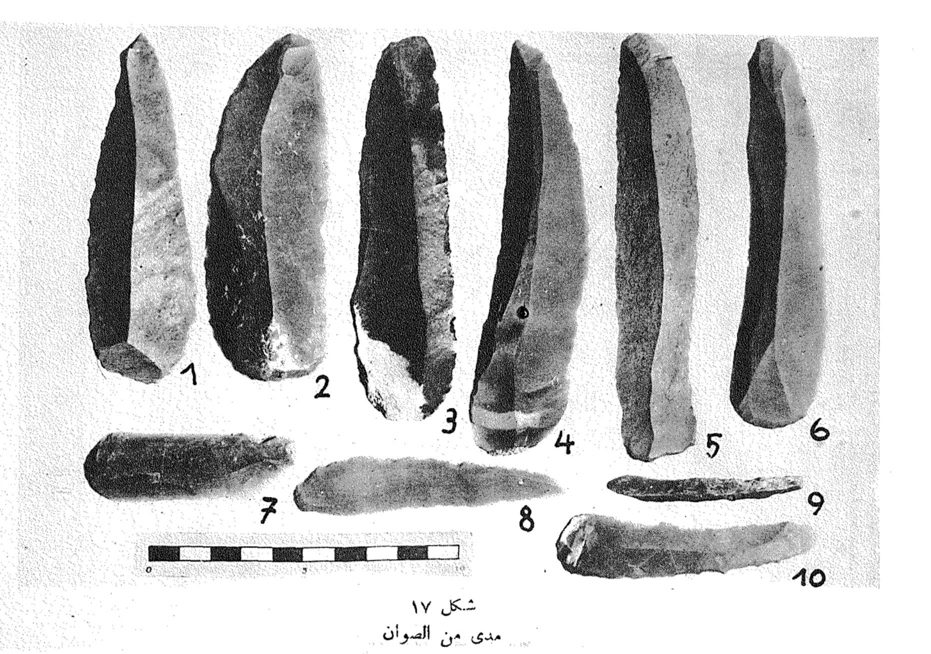


شكل ٢٢

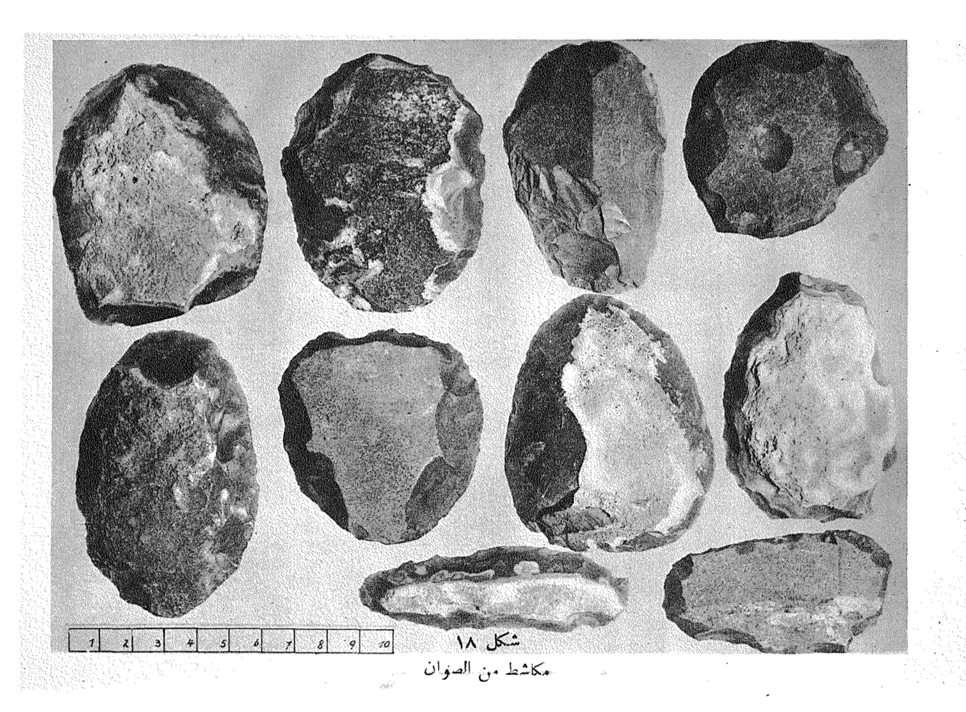
مخارز من الصوان وملعقة وغطاء قدر من خشب وبعض نبات الحلفاء



شكل ١٦
رأس فأس من النحاس (ا) وأخرى من
الحجر الاسود(ب) وازابيل من النحاس (ج)

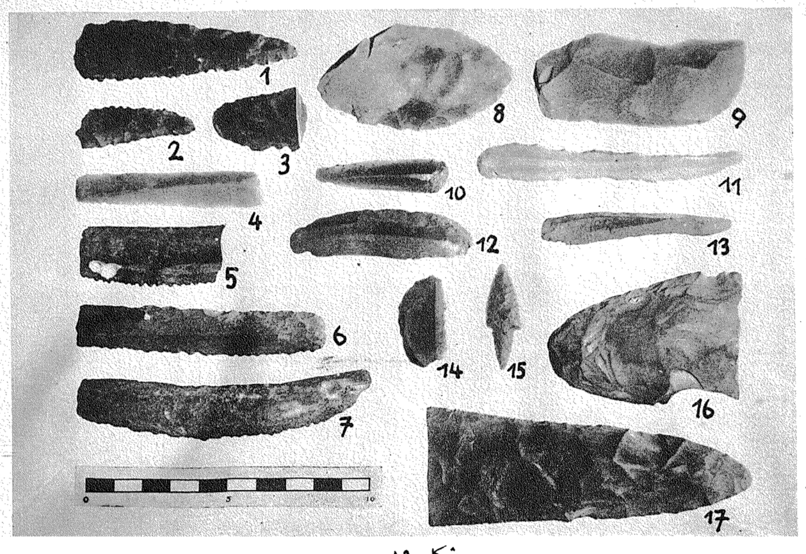


شكل ١٧
مدى من الصوان



شكل ١٨

مكاشط من الصوان



شكل ١٩

حراب ورءوس سهام ومناجل من الصوان

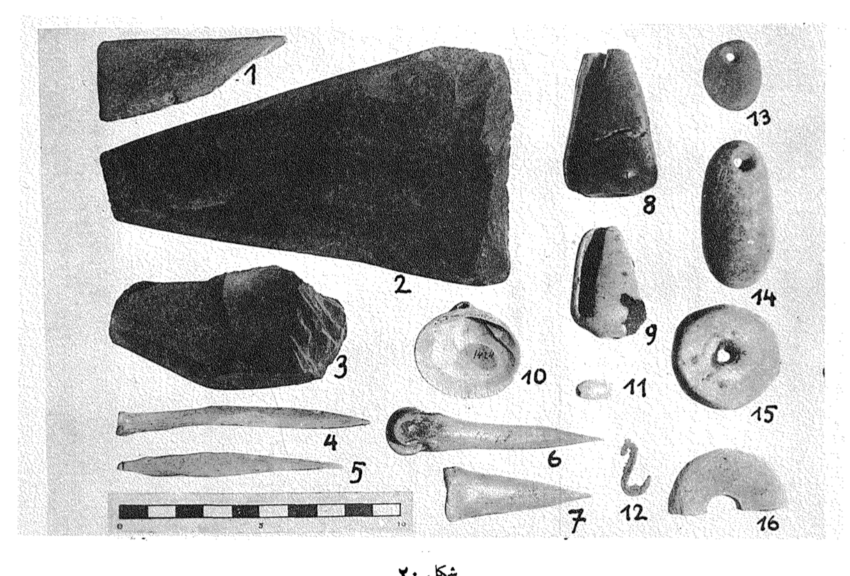
و بعض تلك الصخور النارية والمتحوّلة هى من صخور جبال البحر الأحمر والبعض الآخر من منطقة أسوان . وقد صنعت رأس فأس (شكل ١٦ب) وجدت فى المعادى كما صُنعت بعض رءوس الدبابيس (Mace-heads) التى عثرنا عليها من تلك الأنواع الأخيرة . ولم تكن لدينا فى المواسم الأولى إلا قطعا مكسورة من الأدوات والآنية الحجرية المختلفة، ولكننا نملك الآن عددا لابأس به منها، وهو عدد كبير بالنسبة لكونه قد استخرج من بقايا المساكن المخربة .

ولقد كانت معظم الآلات والأسلحة التى استخدمها سكان المعادى فى ذلك العصر من الصوّان، وهى لكثرتها ودرجة انتشارها لا يمكن حصرها . وللصوّان كما نعرف مزايا كثيرة جعلته فى العصور الحجرية أفضل المواد الصخرية التى تصلح لصناعة الآلات بأنواعها، لا فى مصر وحدها، بل فى كل جهات العالم . وليس هناك شك فى أن أهل المعادى كانوا يجمعون كل ما يمكن جمعه من الصوّان من مجارى الوديان القريبة ومن بين طبقات الحجر الجيرى المحلية . على أنهم لا شك أيضا كانوا يحصلون على مقدار منه من أماكن أخرى فى مصر وذلك عن طريق المبادلة . وقد صنعوا من هذا الصخر كل ما يمكن أن يصنع من آلات يحتاج اليها المرء فى أعماله المتعدّدة ، فاقتطعوا منه المدى (شكل١٧)، وأعدّوا المكاشط لاستخدامها فى تجهيز الجلود والأخشاب (شكل ١٨)، وعملوا المثاقب (شكل ٢٢) والسهام ورءوس الحراب والمناجل المسننة (شكل ١٩)، وبالاختصار كل ما يدل على أنهم قد حذقوا تلك الصناعة تمام الحذق . ومن فحص الآلات المختلفة ودراسة طريقة صنعها يتبين لنا أنها تنتمى لصناعة انتشرت فى الأدوار الأخيرة لعصر ماقبل التاريخ، وفى هذا تحديد لاشك فيه لتاريخ حضارة المعادى .

على أن القوم فى ذلك العصر قد عرفوا كذلك طرق استخدام النحاس، ولكنه على ما نعلم لم يعمّ استعماله إلا فيما بعد وبخاصة فى القرون الأولى من العصر التاريخى ، وقد بقيت الآلات الصوّانية مستخدمة فى معظم شئون الحياة لمدّة

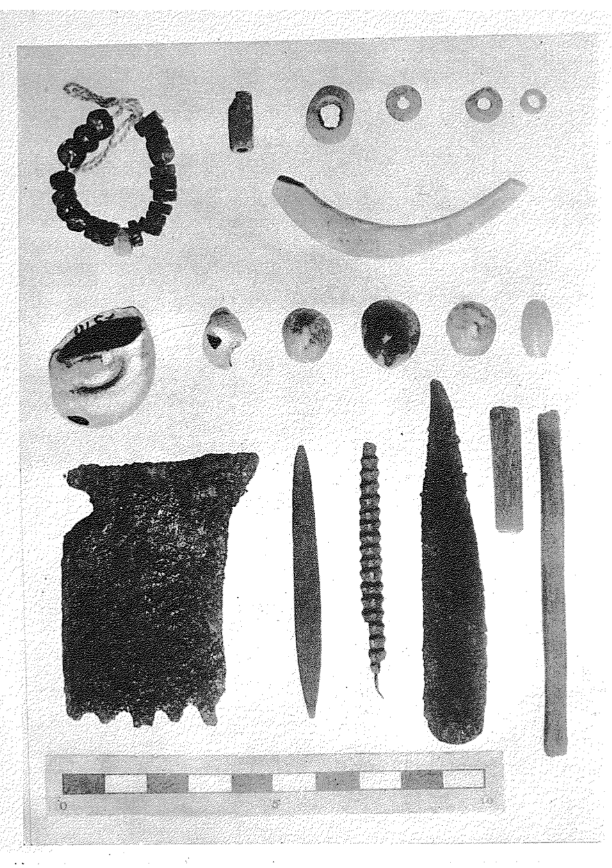
طويلة بعد انتهاء عصر ما قبل التاريخ . وقد وجدت فى المعادى مقادير من خامات النحاس أخفاها القوم فى قدور وحفرات أعدّت لهذا الغرض ، كما وجدت سبائك من هـذا المعدن لم تمسّها يد الصانع بعد ولم تبـدأ بتحويلها الى السلاح المطلوب . ومن الفحص الكيميائى لهذا المعدن اتضح أنه إنما جلب من شبه جزيرة سيناء ، كما استورد أيضا معدن المـانجنيز الذى يكثر فى الجبال القريبة من خليج السويس والذى يستخرج الآن من المنطقة المجاورة لأبى زنيمة . والمعروف أن حركة التعدين فى سيناء كانت نشيطة منذ بدء العصر التاريخى ، ولا شك أن تلك الأدلة الجديدة تثبت تماما أن ذلك النشاط إنما بدأ فى العصر السابق للتاريخ . وقد تجمع لدينا من الأدوات النحاسية عدد من المثاقب والأزاميل (شكل ١٦ حـ) ، وبعض الصنانير التى تستخدم فى صيد السمك (شكل ٢٠ رقم ١٢) ، ورأس فأس (شكل ١٦ ا) هى الوحيـدة لدينا من نوعها . وقـد عرف القوم كذلك مادة القار (الأسفلت) فجلبوها من الخـارج وادّخروها وحافظوا عليها بكل حرص وعناية ، ونحن وإن كنا نجهل الأغراض المختلفة التى كانوا يستخدمونها فيها ، إلا أننا على الأقل نعلم ، بفضل تحليلها ، انهم إنمـا حصلوا عليها من فلسـطين حيث تستخرج بكثرة من جهات البحر الميت .

كذلك كان يصنع الأهالى بعض أسلحتهم من عظام الحيوان (شكل ٢٠ رقم ٤ — ٧) ومن بعض الصخور البلورية وهى صخور زجاجية شفافة نادرة الوجود ، تصلح كالصوّان لصنع السـلاح القاطع . وهناك أدوات قد صنعت من الخشب كالمثاقب (شكل ٢١) وغطاءات القدور والملاعق (شكل ٢٢ رقم ٢ — ٣) وغيرها ، وهذه بطبيعة الحال ليست كثيرة نظرا لمـا يتطرّق الى الخشب فى العادة من فساد يجعل بقاءه كل تلك الآلاف من السنوات من الأمور الصعبة . ويجب أن لا ننسى كذلك الأدوات الكثيرة التى كانت تستخدم فى الزينة ، فقد كان الجنس اللطيف يزين صدره بعقود من خرز ذى ألوان مختلفة (شكل ٢١) ، بعضه من العقيق الأحمر



شكل ٢٠

لوحات من الاردواز وآلات من العظام وصخور وأصداف مثقوبة وصنارة من النحاس



شكل ٢١

بعض أمثلة من أدوات الزينة وهي تشمل الخرز والقواقع المثقوبة والدبابيس الخشبية والأمشاط المصنوعة من قرون الحيوان



شكل ٢٣
كساء كالحصير لأحد المخازن

والبعض من المرمر ومن الحجر الجيرى الأبيض، والبعض الآخر من صخور لم نصل بعد الى معرفة نوعها. وقد زاد عدد حبات الخرز الذى عثرنا عليه زيادة كبيرة فى السنوات الأخيرة، كما زادت مقادير الأصداف والقواقع وقطع الجبس اللامع وقشور بيض النعام، ومعظمها مثقوب، وكان استخدام كل تلك الأشياء على ما يظهر شائعا بين الطبقات المختلفة. وقد صنع القوم الأمشاط من قرون الحيوان (شكل ٢١)، كما صنعوا اللوحات التى تستعمل فى خلط الألوان من الأحجار الجيرية والاردوازية (شكل ٢٠ رقم ١ — ٣)، وقد حصلوا من المغرة على اللون الأحمر، ومن كربونات النحاس على اللون الأخضر، ومن المانجنيز على اللون الأسود. ولا تزال فى كثير من الأحيان تشاهد تلك الألوان عالقة بسطوح اللوحات.

والأدلة كثيرة على أن سكان المعادى كانوا على علم بفن الغزل والنساجة، ولقد عرفنا فيما سبق أنهم كانوا يغطّون بعض المخازن بضفائر من القش (شكل ٢٣) وهى صناعة متصلة بصناعة السلال من ناحية وبفن النساجة من ناحية أخرى. ولقد وجد بين أحجار المغازل التى عثرنا عليها عدد بقيت عصىّ المغازل فى ثقوبها الى اليوم، وهى تشهد بقيام صناعة الغزل فى المعادى منذ القدم. كذلك تبين لنا من أدلة كثيرة على أنهم كانوا يمارسون نوعا من الزراعة البدائية، ويعنون بتربية الحيوان، وقد ظهر من الفحص الأوّلى لبقايا النبات والحيوان أن القمح والشعير كانا يزرعان، وأن نبات الحلفاء (شكل ٢٢ رقم ١) وأشجار الأثل والخروع كانت معروفة، وأن الثور والضأن وفرس البحر والسلحفاة والخنزير والوعل كانت كلها من الحيوانات المألوفة للسكان. ولقد كان بين المواد النباتية التى عثرنا عليها مادة صمغية لم نعرف للآن مصدرها، كما كان بين عظام الحيوانات بقايا لأنواع انقرضت واختفت، وهى أنواع من القواضم لا تعيش إلا فى المستنقعات، وقد اختفت بالتدريج من وادى النيل بفضل تقدّم الزراعة وانتشار العمران.

هذا ملخص بسيط لأهم مظاهر النشاط البشرى فى المعادى خاصة وربما فى الدلتا عامة، وذلك فى الأدوار الأخيرة لعصر ما قبل التاريخ، وهى فترة كانت معلوماتنا عنها قبل اليوم مقصورة على نتائج الأبحاث التى قام بها العلماء فى صعيد مصر دون غيره من جهات القطر . ومن هنا كانت أهمية الحفاير التى تقوم بها الجامعة المصرية فى المعادى ، فقد كشفت عن حضارة جديدة من الحضارات الأولى فى الدلتا ، وأضافت حلقة هامة إلى سلسلة الأبحاث الخاصة بذلك العصر فى مصر، وأظهرت أمام الباحثين مسائل جديدة لا تخلو من قيمة كبيرة فى بحث أصل الحضارة المصرية القديمة ومنشئها وتطورها . ولتلك الحضارة الجديدة من المميزات ما يجعلنا نحكم على أنها حضارة مصرية صميمة، وعلى أنها نشأت نشأة مستقلة عن الحضارات المصرية الأخرى التى نعرفها، وهذا على الرغم من أنها قد اتصلت بتلك الحضارات فى أكثر من ناحية .

ولم تكن المعادى قبل التاريخ قرية صغيرة كما خيل لنا فى أول الأمر، بل كانت مدينة كبيرة عامرة بالسكان، وأن المساحة العظيمة التى تشغلها بقاياها لأكبر دليل على ذلك، فقد بلغ ما تمّ حفره منها فى كل المواسم السابقة خمسة أفدنة ونصف فدان ولا تزال هناك أضعاف تلك المساحة تنتظر الحفر لكى ينتهى العمل تماما . وخرائب مرمدة بنى سلامة فى غرب الدلتا تشبه المعادى فى عظم مساحتها ، وهى مثلها دليل واضح على عظم المدن الشمالية بالنسبة لمدن الصعيد فى ذلك العصر . ومن المحتمل أن المعادى كانت فى الماضى البعيد عاصمة كبيرة لمصر، عند ما توحّد نظام الحكم فيها للمرة الأولى قبل بدء التاريخ، ولا شك أن موقعها الجغرافى مما ساعد على ذلك، كما ساعد موقع منف، وهى تقابلها على الضفة الغربية للنيل، على تبوئها نفس المركز عند ما تمت الوحدة المصرية للمرة الثانية على يد الفراعنة . ولقد كان هناك على ما يظهر نظام خاص اتّبع عند تخطيط المدينة . فهى قد أقيمت على ربوة مرتفعة مستطيلة الشكل تمتد من الأرض الزراعية فى الغرب الى داخل الصحراء



شكل ٢٤

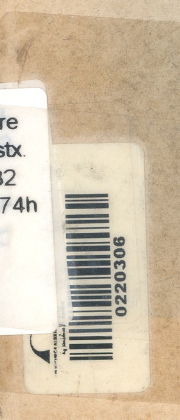
جمجمة سكان المعادي الأول

فى الشرق ، وتحدّها الوديان الصحراوية من الشمال ومن الجنوب . وتدل كثرة بقايا المساكن فى المنطقة الوسطى على أنها كانت مخصصة للسكنى ، على حين قد حفرت معظم المخازن فى الطرف الجنوبى ، وأقيمت المواقد الكبيرة بجوار القدور العظيمة الحجم فى الطرف الشمالى حيث كانت توجد ، على ما نعتقد ، أسواق المدينة وأماكن الصناعة فيها .

وحضارة المعادى فى اعتقادنا ليست حضارة محلية بقى انتشارها محصورا فى بقعة ضيقة . فلقد أمكن تتبّع آثارها شمالا لمسافة غير قصيرة ، ولا شك أن الغرين فى منخفض البساتين وجهات الدلتا المجاورة قد أخفى فى جوفه بعض معالمها . ولقد عثرت مصلحة الآثار المصرية فى أواخر العام الماضى (سنة ١٩٣٥) ، وذلك أثناء البحث عن بعض الآثار التاريخية فى جهة الصف ، التى تبعد حول ٣٠ كيلومترا جنوب المعادى ، على مقابر ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، ووجدت مع الهياكل العظمية فى بعض المقابر التى فحصتها آنية من الفخار تشبه تمام الشبه بعض الأنواع المعروفة فى المعادى ، وهذا دليل جديد لا شك فيه على امتداد حضارة المعادى إلى تلك الجهة البعيدة جنوبا .

أما أصحاب تلك الحضارة فلسنا نعرف عنهم من الناحية الأنثروبولوچية إلا القليل ، ويرجع هذا إلى عدم العثور على المقابر كما ذكرنا . على أن فحص ما لدينا من عظام بشرية يدل على أن القوم كانوا أقرب من حيث شكل الرأس (شكل ٢٤) إلى سكان مرمدة بنى سلامة منهم إلى سكان الصعيد ، غير أنهم على الرغم من ذلك ينتمون هم وسكان الوادى فى الوجه القبلى إلى سلالة بشرية واحدة هى سلالة البحر الأبيض المتوسط . هذا كل ما نعرفه عنهم الآن ، ولا شك أن الأبحاث المقبلة سوف تلقى ضوءا أكثر على تلك المسألة الهامة .




re
stx.
32
74h
02220306